

بغداد والقسطنطينية

مركز الحضارة في العصور الوسطى

خلاصة محاضرة للبروفسور ستيف رانسمين

يصعدون بسفنهم الى اعالي الانهار ، والفرسان منهم يجوبون على ظهور جياهم يعيشون في السهول والهضاب . وقلما حل موسم ولم يصب حاصله بالتلف والنقصان وكان بعض المدن والاديرة التي حاولت الاحتفاظ بشيء من العلم تحرق وتمحي من وجه الارض . ومع انه من اعماق هذه الظلمة الدامسة ظهرت قلة من الناس مثل شرلمان الا ان قيام الحكومات المنتظمة كان متقطعا . ويعرف الانكليز الآن اسماء ملوك من ذلك الزمن مثل الملك ارثر الذي يشك في وجوده والملك ألفرد المشهور بفشله في صنع الكعك .

ولو كنا من ابناء تلك الحقبة وعشنا منذ ألف أو ألف ومائة سنة و اردنا ان نحيا حياة مدنية راقية ، وجب الاتى نتعب انفسنا في البحث عنها في أوروبا الغربية بل ان توجه الى الاندلس الاسلامية حيث كان مستوى المعيشة عاليا ومريحا . ولعلنا كنا نرجو ان تساعدنا الظروف فيقيم اوجهنا شطر الشرق فان كنا من النصارى الصالحين اتجهنا نحو المدينة العظيمة القسطنطينية وان كنا مسلمين صالحين فضلنا التوجه الى بغداد مقر الخلافة . لقد كانت القسطنطينية أقدم من بغداد ، اسسها

تعرف الحقبة الواقعة بين انهيار الدولة الرومانية القديمة وحركة النهضة الاوربية بالعصور الوسطى ، فهي تمتد من حوالى سنة ٤٠٠ م الى سنة ١٥٠٠ م وقد جرى الغربيون على اهمال القرون الستة الاولى من هذه العصور لانها تُولف ما يسمونه بالعصور المظلمة . ونحن نصفها بالمظلمة لاننا لا نعرف عنها الا ما قل وندر او لانها في الحقيقة تشمل شئ أمور نجعل كل ناحية منها جهلا تاما . فهل كانت مظلمة حقا ؟ لقد كان السفر في اوربية بالمركبة ذات العجلات سنة ٧٠٠ ايسر منه سنة ١٧٠٠ ذلك ان الطرق التي بناها الرومان بقيت بدون ترميم وصيانة حتى حل القرن الثامن عشر . فتردت وساء أمرها بمرور الزمن . وكانت عادة الاستحمام في القرن السابع اكثر انتشارا مما كانت عليه في القرن السابع عشر حتى ان لويس الرابع عشر «الملك الشمس» ملك فرنسا العظيم لم يستحم الا مرة واحدة في حياته وما كان يرغب في ذلك مطلقا ! أما مواطنوه ممن عاشوا قبله بألف سنة فعابا ما كانوا يدخلون الحمام . مع ذلك فالعصور الوسطى قد كانت مظلمة ، لقد كانت الحياة فيها صعبة لا تفر على حال ، وكان القرصان من البرابرة

فأخذتا بالانحطاط والتدهور . وما حل منتصف القرن الثامن حتى كانت القسطنطينية العاصمة العالمية الوحيدة للعالم الروماني المسيحي واعظم مدينة في نصف الكرة الارضية الغربية واصبح عدد سكانها نحو من ٨٠٠٠٠٠٠ نسمة في داخل أسوارها و ٢٠٠٠٠٠٠ في أرباضها الممتدة خارجها . وبقيت القسطنطينية في خلال خمسة قرون اخرى اعظم مدن العالم المسيحي ولكنها بعد منتصف القرن الثامن لم تبقى وحدها العاصمة العظيمة في العالم . ففي سنة ٧٦٢ م (١٤٥ هـ) وضع الخليفة ابو جعفر المنصور أسس عاصمة جديدة للخلافة في بغداد وأكمل بناءها بعد اربع سنوات . ليس لبغداد موقع القسطنطينية الجذاب ولكنها انشئت في بقعة رأت عددا من عواصم المدينة في خلال ألوف من السنين . وكان لاستواء ارضها منافعه الخاصة . لقد انشئت القسطنطينية فوق سبعة تلال وكان لا بد من أن يكون تخطيطها متلائما مع طبيعة ارضها ولهذا حلت من ذلك التناظر الذي امتازت به مدينة المنصور التي بنيت بهيئة ترضى ذوق امير يهتم بالرياضيات ، فجعلت مدورة يحيط بها خندق وسوران وفي داخلها سور ثالث أكثر علوا يضم في وسطه قصر الخليفة باباه الذهبي وقبة الخضراء التي تتسامق في الجو الى علو مئة وثلاثين قدما . كانت المدينة في جانب دجلة الغربية ونشأت حولها ارباض واسعة امتدت الى الجانب الشرقي الذي كان يصله بالمدينة الكبيرة جسر على قوارب . وبغداد كالقسطنطينية قد اتسعت رقعتها وتجاوزت حدودها الاولى كثيرا خاصة في الجانب الشرقي وما مر قرن من الزمن حتى اصبحت المدينة الشرقية

قسطنطين العظيم امبراطور الرومان في سنة ٣٣٤ للميلاد في موضع بيزنطيوم المدينة اليونانية القديمة واكمل بناءها في مدة ست سنوات . لقد كان موقعها ممتازا لا يضارعها فيه مدينة غيرها سواء من حيث جمال المنظر أو القيمة العسكرية والتجارية . لقد انشئت فوق قمة جبل عند حافة اوربا تماما ، ويفصل هذه القارة هناك عن آسيا شقة من البحر أشبه بالنهر ، وهي تتحكم في الطريق البرية الوحيدة التي تربط اوربا بالعالم المتمدن في آسيا الغربية وفي الطريق المائية التي تصل البحر الاسود بالبحر الابيض المتوسط . أما موقعها فكان من السهل تحصينه والدفاع عنه فضلا عن ان لها أحسن مرفأ طبيعي في العالم خلقه ذلك الخليج المنحني المعروف بالقرن الذهبي . اسست هذه المدينة لتكون العاصمة الجديدة للعالم الروماني فحققت ما أريد منها . لقد توسعت رقعتها في مدى قرن من قيامها وامتدت الى ما وراء حدودها الاصلية ، فحتم هذا التوسع إقامة حصون جديدة تضم أقسامها كلها فبنى السور البحري لحماية حدودها البحرية الطويلة ، وأقيم سوران عظيمان فيهما أحد عشر بابا ونحو من مائة برج من جهة البر . وكانت الى القسطنطينية في اول نشوئها مدن اخرى حافظت على ازدهارها وراثتها نذكر منها مدينة رومة القديمة نفسها والاسكندرية في مصر وانطاكية في سورية وقد تضائل شأن هذه المدن بازدياد نمو العاصمة وتعاضلها لا سيما بعد ان نهب البرابرة رومة مرتين فباتت بلدة صغيرة بين ركام الخرائب ، وبعد ان فتح العرب سووية ومصر وانتقل مقر الحكومة من انطاكية والاسكندرية

الشمال الغربي ، ووجدوا انفسهم على ابواب فارس فمال الناس الى الفن الفارسي والاغاني الفارسية والافكار الفارسية والرقيق الفارسي ولم تستمر هذه الرغبة طويلا ولكنها ساعدت على توسيع نظرة العرب وافق الثقافة العربية ، فلما انبعثت الرغبة من جديد الى الحضارة الرومانية - اليونانية في القرن التاسع للميلاد قامت عند ذلك على أسس أكثر اتزانا وتفهما للامور .

هذا من جهة، ومن جهة ثانية اكتشف بيزانطيو القسطنطينية ان هناك أشياء يمكن تعلمها من العباسيين المسلمين . لقد كان الامويون في نظرهم دخلاء ليس لديهم ما يعطونه غير العقيدة ، أما العباسيون فكانت عاصمتهم في بلاد لم تكن جزءا من العالم الروماني اليوناني الا فترة قليلة ، وهي ترتبط بفارس ، البلد الذي كان الروم ينظرون الى حضارته نظرة تقدير واحترام ، وهم الى ذلك لم يكونوا يشعرون بخاطر مباشر من العباسيين ، ومع استمرار الغزوات بينهم في منتصف القرن العاشر فانها كانت تنتهي بالتهادن ، وكان الرسل يعثون من قطرا الى آخر للتفاوض على الصلح أو للاعلان عن اعتلاء سلطان جديد العرش ، وكان لا يخلو وقت من وجود أسرى لاحد الطرفين لدى الآخر وكان هؤلاء يطلعون على نواحي الحياة المختلفة في البلد الذي يقيمون فيه ، حتى ان بعض اللاجئين السياسيين كان يقصد البلد الآخر للاحتماء ببلاطه . ولم تعق الحروب استمرار المتاجرة بين الجانبين فكان التجار يجتازون الحدود وكان التجار العرب يؤمنون القسطنطينية مما ساعد على الاطلاع على الحياة الاجتماعية والفنية والفكرية هناك .

أهم أقسام بغداد وتحتم إقامة سور حولها وانتقلت اليها دواوين الدولة وبنى الخلفاء قصورهم فيها . والظاهر ان الانتقال الى المدينة الشرقية قد تم نهائيا في سنة ٨١٤ م بعد ما أصاب المدينة المدورة من تخريب خلال الحرب الاهلية التي وقعت بين ولدى هرون الرشيد . لم تنته الينا أرقام صحيحة عن عدد نفوس بغداد الا انهم من المؤكد وصلوا في القرن العاشر الى أكثر من مليون نسمة يعيشون في داخل المدينة وأرباضها .

لقد كانت روح المنافسة تسيطر منذ البدء على العاصمتين العظيمتين : عاصمة الخلفاء وعاصمة الامبراطورية الا انها لم تكن على كل حال منافسة غير ودية دائما . فلقد كان المسلمون في أوائل عهدهم يهدفون الى فتح القسطنطينية لانها كانت حينذاك عاصمة العالم المعروف وكان هم المسلمين نشر دينهم في العالم كله فكان سعيهم الى الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية وكان النبي نفسه على ما يقال قد وعد أول مسلم يضرب أسوارها بمكان خاص في الجنة . والى ذلك فقد كان لا يزال في الشام الاموية امراء عرب يحكمون رعايا سوريين يتكلم معظمهم اليونانية وبقى أكثرهم على نصرانيته فكانت القسطنطينية عندهم مركزهم الثقافي وكان البنؤون والصناع والتقاشون في الجوامع الاموية الكبيرة في الشام وفلسطين كلهم من النصراني بل انهم في الاصل من أهل القسطنطينية . كل ذلك دفع الامويين على مهاجمة عاصمة الامبراطورية الا انهم فشلوا مرتين أمام مناعة حصونها . ولما نقل العباسيون مركز الدولة صوب الشرق ضعفت رغبتهم في التوسع نحو

كان العرب يعترفون بان بيزنطة من بلدان العالم المتمدن وكان الخليفة المأمون من المولعين بالفكر اليوناني القديم ويريد ان يعرف كيف يعيش يونان زمنه . لقد كان العباسيون قبله على اتصال

بالبزنطيين ، فلما أراد المنصور تأسيس بغداد ، أطلع سفيرا بزنطيا كان موفدا الى بلاطه على خططها وكان هذا السفير على ما يقال ذا علم واسع باحوال ملوك بلاده . فأشار على الخليفة بابعاد الاسواق عن داخل المدينة المدورة وان يجعلها في خارج الاسوار ذلك ان الاسواق يزورها الغرباء وقد يكون بينهم الجواسيس ، ومن الاسواق ينتشر الشغب وتنبعث القتن ، فينبغي ان تكون بعيدة عن القصر ودواوين الدولة . فأخذ المنصور بهذه

النصيحة ونقل الاسواق الى ربض الكرخ . ووفد على بغداد بعد ذلك بوقت غير طويل رسول بيزنطي آخر هو البطريق تراسيوش (ذكره الخطيب باسم طارات) جاء يحمل تهناتي امبراطوره الى المهدي بن المنصور لما بويغ بالخلافة . وكان هذا مهندسا بارعا فاشرف اثناء وجوده في بغداد على بناء رحى عظيمة في الارياض الغربية عرفت برحى البطريق وكافاه الخليفة على عمله بان كان يبعث اليه غلتها في كل سنة وكانت نصف مليون درهم (أى ٢٠٠٠٠٠ دينار) حتى مات .

وفي ايام المأمون ازدادت الصلات وثوقا بين البلدين . فمن أوائل أعمال هذا الخليفة انه كتب الى الامبراطور ليو الخامس طالبا ارسال نسخ من مؤلفات ارسطو لم يعثر عليها في الشرق . وكان حنين النسطوري المترجم الاول لدى الخليفة قد جاب مصر والشام باحثا عن كتب الفلسفة والعلوم

اليونانية . فأرسلها الامبراطور مسرورا الى المأمون وهكذا ولدت مدرسة ارسطو العربية والتي اشتهر منها الفيلسوف الكندي الذي ولد في نحو هذا الزمن .

وفي أواخر أيام المأمون وصل الى بغداد اسير بيزنطي ادهش الجميع بمعرفته الواسعة بهندسة اقليدس التي لم تكن شائعة كثيرا في بغداد وتحدث كثيرا عن معلمه ليو الملقب بالفيلسوف . فكتب الخليفة الى القسطنطينية حالا طالبا ارسال ليو ليعلم في بغداد عارضا على الامبراطور مبلغا كبيرا من المال اذا سمح له بالمجيء . الا ان ليو رفض اعطاء دروس في بغداد ولعل كان ذلك لان الهبة لم تمنح له بل لحكومته .

وفي الوقت نفسه كان الروم يأخذون عن بغداد ما هم على جهل به . فلما ارتقى الامبراطور ثيوفيل العرش بعث الى بغداد يوحنا الغراماطيقي للاعلان عن ذلك ، وكان هذا الرسول من تلامذة ليو ايضا ومن العلماء المعروفين باللغة العربية فلما عاد الى بلاده روى لملكه كثيرا من الامور التي شاهدها في قصور الخلفاء ببغداد فلما اراد ثيوفيل تجديد قصره الملكي ارسل الى بغداد يطلب التصاميم والتفاصيل . ومن المحتمل ايضا ان زيارة يوحنا لبغداد مدت العلوم البيزنطية بالمزيد ولما صار بعد ذلك بطريقا على القسطنطينية قام اصداقؤه وتلامذته باعادة تأسيس جامعتها وبدأ العلماء البيزنطيون يعنون بالقرآن . كما ان العالم المسلم محمد بن موسى الفلكي زار بلاد البيزنطيين للبحث عن موضع أهل الكهف ، بعثه الخليفة الواثق مع توصية الى الملكة تيودورا للاهتمام بأمره .

على ان الصلات بين البلدين قد فترت في القرن التاسع للميلاد وضعف ما كان يسودها من اعجاب وتقدير . فأبن الفقيه مثلاً ذهب الى انه ليس للروم حضارة يفخرون بها فتقافتهم هي ثقافة اليونان القديمة ليس الا وأشار المسعودي الى فضل الروم الاولين على العلوم ويريد بهم الرومان وقال ابن حوقل في نحو من سنة ٩٧٥ م ان الروم ليسوا من الثروة والقوة كما يظن بعضهم . مع ذلك فقد ظل العرب يحسبون لهذه الدولة حسابها فلما سئل الوزير على بن موسى ان يسمى شخصاً للوزارة سنة ٩٢٢ م وذكر اسم احد القضاة انكر الخليفة عليه ذلك لثلاثن القسطنطينية ان العرب يفتقرون الى اشخاص قد مارسوا شؤون الدولة . وفي ختام القرن العاشر للميلاد التجأ الى بغداد الامير البيزنطي الثائر بارداس فوكاس وأخذ عنها شيئاً من العلوم العسكرية . وفي سنة ٩٨٨ م زار النديم الوراق القسطنطينية لما انتهى من تأليف كتابه المشهور « الفهرست » .

وكان الخلفاء وملوك الروم يهتمون باظهار قصورهم في أحلى زينة وافخم هيئة أمام الرسل التي تأتي لزيارتها . فلما وفد على الخليفة المقدر رسل امبراطور الروم في سنة ٩١٧ م اجري استعراضا امامهم مشى فيه نحو من ١٦٠٠٠٠ من فرسانه ومئة سبع ، ثم أدخل الرسل الى القصر للتفرج على ابهائه وقاعاته فادهشتهم ستائره وفرشه وادخلوا الى دار الشجرة وكانت فيها شجرة من ذهب وفضة عليها طيور تغرد من الذهب والفضة ايضا ، ثم جرى بهم الى حضرة الخليفة فمروا في طريق يزين جانبيه نخيل حامل بغرائب البسر .

ولكن الشجرة نفسها لم تدهشتهم لان في قصر ملكهم شجرة اصغر منها عملت على شاكلتها . وكان من الرسوم المتبعة ان يقام عرض عسكري في بغداد أو القسطنطينية اذا زار احدهما رسل البلد الآخر ، وتقام كذلك الاحتفالات الكيرة والالاعاب الجميلة لكي يطلع كل وفد على ما لدى البلد الآخر من فن وثروة وقوة .

لم يكن بين الحضارتين: حضارة بغداد وحضارة القسطنطينية اختلاف كبير . اذ يمكن القول ان العناصر المكونة للحضارة البيزنطية كانت رومانية وهنسية وسامية وفيها مسحة فارسية ، وكان قوام الحضارة العربية عناصر سامية وفارسية وهنسية مع مسحة رومانية . ففي كليهما العناصر نفسها مع تفاوت في نسبتها . ولذا كان العربي من بغداد لا يجد القسطنطينية مدينة غريبة كثيراً عنه ، وكان البيزنطي من القسطنطينية يشعر وهو في بغداد وكأنه في بلده أكثر مما اذا كان في باريس أو آخن أو حتى في رومة . وكان كل شعب منهما يرثى لديانة الآخر ولكن لم تظهر بينهما عداوة مذهبية عاطفية . كان المسلم يعتقد ان المسيحية تمثل وحياً ذهب او انه وقد دخلته كثير من البدع والاختفاء ، وكان البيزنطي ينظر الى الاسلام بأنه بدعة نصرانية متطرفة جدا . الا ان مسلمي ونصارى الشرق يعرفون بعض الشيء عن كل منهم ، فاننا نسمع عن محاورات ومجادلات دينية كان يقيمها الخليفة أو الامبراطور كان يسمح فيها للمجادل المسلم أو المسيحي بعرض قضيته بكل صراحة وبدون حذر واحتراس . فلم يكن الامر على ما كان عليه الغرب في القرون الوسطى حيث

بقي الاسلام مدة طويلة يعد شكلا مخيفا من اشكال الوثنية وكان الغربيون لجهلهم ينسبون الى المسلمين عبادة عدد من الالهة بينها الالهة هائلة يقال لها Termagant لقد كان في المدن الاسلامية ترماكنت Termagant ، ومن القرن التاسع فما بعده كان في القسطنطينية جامع وكان قبر أيوب في خارج أسوارها مزارا اسلاميا محترما . وقد اعتلى عرش القسطنطينية امبراطور واحد على الأقل من أصل عربي . وكان بين الخلفاء من كانت امه نصرانية الاصل . نعم كانت الحروب تكاد لا تنقطع بين الدولتين ، وكان العرب يودون لو انهم استولوا على القسطنطينية والبيزنطيون على بغداد . ولكن تلك الحروب كانت خالية من المرارة وكانت تحدث مذابح ويقع شهداء للعقيدة ولكن الرأي العام كان يكره مثل هذه المغالاة ، وغالبا ما كانت تدفع التعويضات عن الضحايا .

وكان اثر هذه المنافسة في بغداد لا يختلف كثيرا عنه في صاحبها . كانت بغداد احدث مدينة وحضارتها اكثر جدة واعظم تجردا ، وقد وجهت هذه الحضارة انظارها نحو فارس اولا ولكن الفتوحات العربية قضت على المراكز الفارسية لتلك الثقافة ولم يبق عامل يخلق ثقافة تحل محلها ؛ واطلع الخلفاء على الثقافة الهلنستية التي كانت اثارها منتشرة في ولاياتهم السورية الا ان مراكزها القديمة كانت قد تدهورت ايضا . ولهذا لما نظر العرب الى القسطنطينية رأوا ان الثقافة الهلنستية القديمة ما زالت حية ، وقد تطورت لتلائم حاجات الزمن الجديدة . فالقسطنطينية على هذا ليس في وسعها ان تزودهم بينوع من تراث المعرفة القديمة حسب بل وبمقياس للمقارنة والموازنة كانوا قد صمموا على تخليه . ولعل المنافسة مع القسطنطينية كانت اكبر حافز أدى الى خلق المدارس الاسلامية العظيمة في العلم والفكر ، تلك المدارس التي حجبت ما استطاع معاصروها المسيحيون من انتاجه ، وصارت بعد قرون قليلة المورد الاعظم الذي استقى منه الغرب في القرون الوسطى وبهذا كان لها أثرها في التفكير العالمي في أوروبا الغربية . وعليه فيمكن القول ان المنافسة في الحقيقة قد انعشت حضارة

لقد كانت المنافسة بين هاتين العاصمتين تمنية القيمة للحضارة . فان دولة الروم كانت تعي الماضي وتستوعبه ، ثقافة اليونان القديمة وقوة رومة القديمة ، ولم تبق قوة في العالم المسيحي تحرك القسطنطينية وتدفعها نحو التجدد والابداع ، فحاف الجمود بالحضارة البيزنطية وأخذت تعيد ما انتجته امجاد الماضي اكثر من ابداعها اشياء جديدة . كان البيزنطيون يشعرون في قرارة نفوسهم بأن واجبه هو المحافظة على ما وصل اليه اسلافهم في عالم مظلم مجهول ، فصارت لهم روح محافظة . الا ان قيام مدينة اخذت تنازعهم البقاء وامجادها تحط من شأن ما توارثوه وألفوه وتمسكوا به ، جعل أهل القسطنطينية يفكرون تفكيرا جديا في

القسطنطينية وطورت حضارة بغداد . ان اعظم عهد مرت به بغداد والقسطنطينية في القرون الوسطى كان حين هفتت موقتا العداوة المذهبية وكان فيه رجال الدولة يقضون اوقاتهم في عمل اشياء تبهر رسل الدولة الاخرى والعلماء دأبوا على دراسة ما يتوصل اليه زملاؤهم في العلم والمعرفة نلافادة منه . أما اوربا الغربية فكانت غارقة في ظلام دامس حين كانت هاتان المدينتان العظيمتان تعملان على الاحتفاظ بالمعرفة والجمال والسعي لتقدمهما وازدهارهما .

ويدعونا بعضهم اليوم الى انتظار ذلك اليوم السعيد الذي تظهر فيه دولة عالمية واحدة يساهم فيها الجميع في ما لديهم من المعرفة وحيث تزول المنافسة ويتمتع كل انسان بمستوى جيد للمعيشة ومستوى واحد للثقافة . فان حل ذلك اليوم البشع فان حافز السير الى الامام سيزول وسيدير المفكرون

فما هي العبرة في ذلك ، اذا اردنا في الحقيقة الافادة من عبر الماضي ؟ . من رأيي ان نرحب بالمنافسة السلمية القائمة على قواعد من التسامح والتفاهم لان المنافسة السلمية احسن حافز للتقدم . نعم ان التسامح والتفاهم اللذين كانا سائدين بين بغداد والقسطنطينية لم يحولا دون الغزوات والحروب والمذابح بينهما ولكن هذه الحوادث كانت أمورا عرضية في القصة كاملة . ومجمل القول

تلخيص : بشير فرنسيس